شعر الفتوحات الإسلامية

نلاحظ أن أبرز الموضوعات التي تطرق إليها الشعراء المجاهدين في أشعارهم، هي: وصف المعارك، والفخر، والرثاء والنزاعات أو المشاعر الإنسانية.

أ. وصف المعارك:

ذكر الشعراء المجاهدون في أشعارهم وقائع اشتباكاتهم مع المشركين، ومواجهتهم لأهوال الحروب وعزمهم على خوضها واسترخاصهم للحياة في سبيل الله تعالى؛ وصَوَّرُوا ذلك تصويرا تمتزج فيه نشوة الانتصار الساحق بتقهقر المشركين وانهزامهم.
وعلى خلاف وصف المعارك في شعر الفتوحات الإسلامية يخضع لنزعة دينية واضحة تتمثل في عقيدة الجهاد من أجل نشر تعاليم الإسلام والدفاع عنها. وقد عرض لهاته النزعة عدد كبير من الشعراء وصرحوا بها في أشعارهم.

ب. الفخر:

يرتبط وصف المعارك بالفخر ارتباطا وثيقا في شعر الفتوح والجهاد؛ غير أنه فخر يختلف في دوافعه وغاياته عما ورد في الشعر الجاهلي. وإذا كان الدارس يلاحظ أن بعض شعراء الفتوح يعتز بمآثر قبيلته ويعدد مكارمها، فذلك لا يصدر عن الشعور بالاستعلاء بالذات ـ الفردية والقبلية ـ وإنما يصدر عن الشعور بالاعتزاز بدين الإسلام، والشرف الذي حققته القبلية في ظلاله؛ وهو شرف آخر يضاف إلى ما خلفته من أمجادها الجاهلية. ولهذا نرى أن الشاعر المجاهد يشيد ببذل شجاعته وبأسه في خدمة الإسلام، ولا يرجو من متاع الدنيا سوى مرضاة الله وثوابه.

ج. الرثاء:

أشاد شعراء الفتوح في رثائهم باندفاع من استشهدوا في ميادين الجهاد، وإقبالهم على الموت بنفوس مطمئنة لنشر الدعوة الإسلامية. وصوروا خلال ذلك التفجع على فقدهم، واللوعة على مصرعهم بمنآى عن الأهل في هذه البلدان الغريبة عنهم؛ معبرين عن يقينهم بأن الموت مصير محتم على كل إنسان، وإيمانهم بقضاء الله وقدره والاستسلام لمشيئته.
ويعظم الشعور بالفقد لدى الشعراء حين يمزجون رثاء الشهداء برثاء أنفسهم، فيتضاعف التفجع والجزع ـ ليس من الموت في حد ذاته ـ وإنما من الموت في ديار الغربة، حيث لا يجدون من يبكيهم و يجود بدمعه عليهم من الأهل والأحباب.
وقد طرأ على الرثاء موضوع جديد لم يكن معروفا قبل عصر صدر الإسلام؛ وهو رثاء بعد أعضاء الجسد التي فقدها الشعراء المجاهدون في ساعة المعركة، وفيه يصورون شدة احتمالهم لفقدها،

واعتزازهم بما أصابته من المشركين، واستهزائهم بها، لما بذلته في سبيل الله محتسبين ثوابها عنيه تعالى احتسابا يظهر قوة تشبثهم بعقائد الإسلام وصدق إيمانهم بها.

د.النزاعات الإنسانية:

وهي أبرز مايميز موضوعات شعر الفتوح. فقد عبر الشعراء المجاهدون عن عدة مشاعر متضاربة تعكس ما يعتمل في نفوسهم من فراق وغربة، وشوق ولهفة، واستسلام ورضى، وخوف وجزع، وحزن وأسى وألم وأنين، وما يترتب عن ذلك من حيرة بين الإقدام على الجهاد، أو التراجع عنه؛ وتردد بين التمسك بالجذور والارتباط بها، أو التّنكر لها والانقطاع عنها؛ وقلق بين الأمل في لقاء الأهل والأحباب، أو اليأس من العودة إليهم والاجتماع بهم... إلى غير ذلك من المشاعر المتأجّجة التي تتفرع عن أصل واحد هو: الصراع بين الالتزام بالواجب وبين الانقياد للعاطفة. وقد تجلى هذا الصراع العنيف في نزعتين إنسانيتين بارزتين تكشفان عن مدى المعاناة النفسية التي كانت تحيط بالشعراء المجاهدين: أولاهما الحنين إلى الوطن وثانيهما حنين الآباء إلى الأبناء.

خصائص شعر الشيعة:

يتميز شعر الفتوح الإسلامية بجملة من الخصائص، نذكر منها:

1 ـ أن معظم شعرائه لم يُعرف لهم شعر قبل الفتوحات، ولم يَجْر على لسانهم إلا أثناء حركة الجهاد وخلال المعارك الحامسة التي أثرت في نفوسهم، ودفعتهم إلى التعبير عن مشاعرهم.

2 ـ أن المقطوعات غلبت عليه بالقياس إلى القصائد التي صدرت عن بعض الشعراء المتهورين، مثل: عَبْدَ بن الطبيب، والنابغة الجَعْدي، وعمرو بن مَعْدِ يَكْرِبَ الزبيدي.

3 ـ أن الإيجاز زاد عليه، وذلك لأن المشاهد والمرافق كان يتم تصويرها من طرف الشاعر في أبيات قليلة، يكتفي فيها الإشارة الموحية عن تفصيل الفكرة وتفريعها.

4 ـ أن النزعة الإسلامية طغت عليه لإيمان المسلمين بعقيدة الجهاد في سبيل الله التي سخر شعراء الفتوح مختلف موضوعات أشعارهم لها؛ ولأن الغاية الأهم من الفتوحات كانت غاية دينية، هي نشر مبادئ الإسلام، وبَسَطُ قيمه الروحية في أقصى الآفاق.

نماذج من شعر الفتوحات الإسلامية

أ- وصف المعارك:

1- يقول بشر بن ربيعة الخثعمي في معركة "القادسية":

تذكّر- هداك الله- وقع سيوفنا = بباب قديس(1) والمكر عسير(2)
عشية ودّ القوم لو أنّ بعضهم = يعار جناحيْ طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة = دلفنا(3) لأخرى كالجبال تسير
ترى القوم فيها واجمين(4) كأنهم = جمال بأحمال لهنّ زفير

2- يقول عُروة بن زيد الخيل:

صبرت لأهل القادسية معلما(5) = ومثلي إذا لم يصبر القرن(6) أصبر
خطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا(7) = وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا(8)
حمدت إلهي إذ هداني لدينه = فلله أسعى ما حييت وأشكر

ب- الفخر:

1- يقول نافع بن الأسود مفتخرا بقبيلته "تميم" وببلائها وأثرها في معركة "القادسية"

هم أهل عزّ ثابت وأرومة(9) = وهم منبع" في الذرى(10) والغلاصم(11)
وهم يضمنون المال للجار ما ثوى = وهم يطعمون الدهر ضربة لازم(12)
وحيّ أتى الإسلام كانوا أئمة = وبادوا "معدّا" كلّها بالجرائم(13)
فجاءت بهم في الكتائب(14) نصرة = فكانوا حماة الناس عند العظائم.

2- يقول عُروة بن زيد الخيل "في معركة "نهاوند":

ولمّا دعوا يا عُرْوَ بنَ مُهلْهِل = ضربتُ جُمْرَ الفُرْسِ حتّى تولّت.
دفعتُ عليهم خَلْتَيّ وفوارسي = وجرّدتُ سيفي فيهمُ ثمّ ألتي...
وقد أخّتِ الدنيا لذيّ ذميمة = وسلّيتُ عنها النفسَ حتّى تسلّت
وأصبح همّي في الجهاد ونيّتي = فيالك نفسي أدبرتْ وتولّت.

شرح:
1- "قديس": يريد "القادسية". - 2- المكر: متابعة الأعداء ومقاتلتهم بشدة.
3- دلفنا: تقدّمنا. - 4- واجمين: ساكتين مع كرْهٍ وحقْدٍ.
5- معلما: كاشفا عن نفسه؛ يحارب علانية. - 6- القرن: النظير في الشجاعة، وهو الذي يقاومك.
7- تبددوا: هربوا متفرّقين. - 8- تكركروا: انهزموا.
9- أرومة: أصل وحسب. - 10- الذرى: جمع ذروة، ويريدها: المكانة العالية.
11- الغلاصم: أشراف الناس وساداتهم. - 12- ثوى: أقام عندهم بديارهم.
13- ضربة لازم، أي موجبا لا مفرّ منه. - 14- الجرائم: الطباع والسجايا الحسنة.
15- الكتائب: جمع كتيبة، وهي القطعة من الجيش.

Scanned with CamScanner

ج- الرثاء:

1- يقول "كُثَيِّر بن الغريزة النَّهْشَلِيّ" يرثي من أُصيب في معارك "جُوزجان" و"الطالقان" ويرثي نفسه:

سَقَى مُزْنُ السَّحَابِ إذا اسْتَقَلَّتْ = مَصَارِعَ فِتْيَةٍ بِـ"الْجُوزجَانِ"..
وَمَا يُبْكِي أَنْ أَكُونَ جَزِعْتُ إِلَّا = حَنِينَ الْقَلْبِ لِلْبَرْقِ الْيَمَانِي..
وَرُبَّ أَخٍ أَصَابَ الموتُ قَبْلِي = بَكَيْتُ وَلَوْ نَعَيْتُ لَهُ بَكَانِي..
وَأَيُّ فَتًى لِذَا مَا مِتُّ تَدْعُو = يُطَرِّفُ عَنْكَ(1) غَاشِيَةَ(2) السِّنَانِ(3).

2- يقول عبد الله بن سَبْرة الجَرْشِيّ" يرثي يَدَه اليُمْنَى التي قطعها رئيس "الروم":

يُمْنَى يَدَيَّ غَدَتْ مِنِّي مُفَارِقَةً = لَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ "فِلْطَاسٍ" لَهَا تَبَعَا.
وَمَا ظَنَنْتُ عَلَيْهَا أَنْ أُصَاحِبَهَا = وَلَقَدْ حَرِصْتُ عَلَى أَنْ أَسْتَرِيحَ مَعَا...
فَإِنْ يَكُنْ أَرْطَبُونُ(4) الرُّومِ قَطَّعَهَا = فَقَدْ تَرَكْتُ بِهَا أَوْصَالَهُ قِطَعَا.
وَإِنْ يَكُنْ أَرْطَبُونُ الرُّومِ قَطَّعَهَا = فَإِنَّ فِيهَا بِحَمْدِ اللهِ مُنْتَفَعَا.

د- النزعات الإنسانية:

1- حنين الآباء إلى الأبناء: يقول أُمَيَّة بن عُرْثَان بن الأَشْكَر حَنِينًا إلى ابنه "كِلَاب":

لِمَنْ شَيْخَانِ(5) قَدْ نَشَدَا(6) كِلَابَا = كِتَابَ اللهِ إِنْ حَفِظَ(7) الْكِتَابَا..
إِذَا سَجَعَتْ حَمَامَةُ "بُطْنِ وَجٍّ"(8) = عَلَى بَيْضَائِهَا ذَكَرَا كِلَابَا..
تَرَكْتُ أَبَاكَ مُرْعِشَةً يَدَاهُ = وَأُمَّكَ مَا تُسِيغُ لَهَا شَرَابَا.

2- الحنين إلى الأهل والأوطان: يقول أحد المجاهدين حَنِينًا إلى وطنه "نَجْد":

أُكَثِّرُ ذِكْرَ طَرْفِي نَحْوَ "نَجْدٍ" = وَإِنِّي بِالرَّغِيمِ وَإِنْ لَمْ يَدْرِكِ الطَّرْفُ أَنْظُرُ
حَنِينًا إِلَى أَرْضٍ كَأَنَّ تُرَابَهَا = إِذَا أُمْطِرَتْ عُودٌ وَمِسْكٌ وَعَنْبَرُ...
وَمَا نَظَرِي مِنْ نَحْوِ "نَجْدٍ" بِنَافِعٍ = أَجَلْ.. لَا.. وَلَكِنِّي إِلَى ذَاكَ أَنْظُرُ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَظْرَةٌ ثُمَّ عَبْرَةٌ = لِعَيْنِكَ عَبْرَى مَائُهَا يَتَحَدَّرُ.

شرح: 1- يُطَرِّفُ عَنْكَ: يُنَحِّي عنك، ويُجَنِّبُكَ. - 2- الغاشية: الداهية والمصيبة العظيمة.
3- السِّنَان: نَصْلُ الرُّمْحِ. - 4- يوم "فِلْطَاسٍ": أي المعركة التي جَرَت بِـ"فِلْطَاس".
4- أَرْطَبُون: رُتبة عسكرية عالية في جيش الروم. - 5- لِمَنْ شَيْخَان: أي لِمَنْ تَرَكَ شَيْخَانِ كبيران.
6- نَشَدَ كِتَابَ اللهِ: اسْتَعْلَفَ وذَكَّرَه به. - 7- حَفِظَ الكتاب: رَعَى حُرْمَتَه وأَطَاعَه.
8- "بُطْنِ وَجٍّ": ضَاحِيَةٌ من ضَوَاحِي "الطَّائِفِ" كثيرة الشجر والحمام

Scanned with CamScanner